نماذج من اللباس القديم من خلال الأنصاب في موريطانيا القيصرية أصالتها واستمراريتها عبر العصور

د/ محمد خير أورفه لي
معهد الآثار (جامعة الجزائر)

يشكل اللباس بتنوعه على أنماط وطرز عاملا هاما في إظهار طبيعة معيشة وحياة المجتمع في عصر معين واستمرارية تقاليده وعاداته، وتعرفنا على أصول الكثير من التقاليد والطباع التي يمارسها المجتمع في يومنا الحاضر.

ورغم أن التمثال يعطي معلومات تصويرية أفضل بكثير من الأنصاب لكونه مقدم من جوانبه الأربعة، إلا أنه انحصر على مجالات محدودة، فإما أنه أنجز كتماثيل للآلهة الوثنية أو للأشخاص المرموقين في المجتمع والذين تقلدوا مناصب رسمية، فلباسهم شبه رسمي روماني على الغالب مثل المعطف المدعو بالتوجا. بينما مجال الأنصاب فهو فن شعبي هدفه موجه لأهداف دينية إما لتخليد ذكرى نذور قدمت للمعبد أو جنائزية كشواهد على وفاة شخص. ولهذا فإن أصحابه من كافة طبقات المجتمع وخاصة منها العامة والتي لا نرى تمثيلها وذكرها في الوثائق الأخرى كثيرا، ولذا فهي تعطي معلومات أكثر ثراء حول المجتمع.

ورغم أن هدف استعمال الأنصاب كان دينيا وعقائديا بحتا فقد قدمت هذه الأنصاب مشاهد إيكونوغرافية تصويرية أظهر الكثير منها وضع الإنسان الاجتماعي بتقاليده وأزياء لباسه والعادات التي يمارسها. لقد أمدت الكثير من المعلومات التي لها علاقة كبيرة بالمجتمع وعاداته التي كثير منها ما استمر التعامل معه وتعاطيه حتى يومنا هذا.

ومن الجوانب المهمة التي تزودنا بها هذه الأنصاب، لدينا جانب الملابس وأنواعه وأزيائه، بحيث مكنت من توضيح أصول بعض نماذج اللباس التي يتقلدها الناس حاليا والذي يكون جانبا هاما من تقاليد هذا المجتمع ومزاياه.

الفترة البونية تقدم مشاهد تصويرية قائمة على الرمزية، بينما يبدأ التشخيص مع الفترة الرومانية، مما جعلها لا تصمد لما قبل القرن الأول ق.م. حيث نرى فيها مرحلة التحول من الرمزية نحو التشخيص الواقعي. وسنقتصر هنا على عدد من النماذج والأمثلة من بعض المناطق من إقليم موريطانيا القيصرية والتي نجد فيها نوعا من الاستمرارية في تواجدها إلى وقتنا الحاضر. ففيها من الملابس البسيطة والمتمثلة بثوب أحادي يمكن أن ندعوه بالقندورة، وفيها ما هو مكون من عدد من الأثواب التي يلبسها الشخص بحيث تظهر نوعا من التنوع في الشكل والمظهر وفي نوعية الجنس الذي يلبسه من ذكر أو أنثى مما مكننا من التمييز بين اللباس النسائي والرجالي. وقد تمكنا من التعرف على عدد من الأنماط تتمثل خاصة في اللباس البسيط والمركب المتمثل في اللباس الرجالي والنسائي.

الثوب الأحادي (القندورة):

يظهر هذا الرداء على عدد من الأنصاب وفي عدة أماكن، إذ يتميز ببساطته وبكونه ثوبا وحيدا، واسعا وبسيطا. نجده أحيانا وقد رسمت خطوطه وشكله العام بدون تفاصيل في الثنايا، وأحيانا أخرى أكثر رقة وتفصيلا وخاصة في ثنايا الثوب وانسيابه على الجسم؛ فيه القصير الذي يصل إلى الركب فقط وفيه الطويل الذي يصل إلى الكواحل.

فالبسيط والقصير يظهر على عدد من الأنصاب أهمها :

نماذج وجدت في عدد من المواقع فيها أنصاب ذات طابع بوني مثل بطيوة وتيبازة والتي قدمت الثوب الأحادي بدون ثنايا ويميل شكله إلى نوع من

الجيومترية؛ وكذلك وجدناه على عدد من الأنصاب من عين زبودج (منطقة القبائل) حيث الثوب ملبوس من الجنسين الذكر والأنثى.

فبطيوة (بورتوس ماغنوس) أمدت عددا من الأنصاب المؤرخة بين القرن الأول ق.م والقرن الأول م يلبس فيها الأشخاص هذا النوع من الثوب الأحادي، فيها نصب نذري محفوظ حاليا في المتحف الوطني للآثار مؤرخ بالقرن الأول ق.م يقدم جبهة مثلثية في الأعلى في وسطها هلال. تحتها كتابة بونية في حالة سيئة يصعب قراءتها، وتحتها أيضا سجل رئيسي منحوت فيها بنحت بارز نصف مسطح شخص منجز بشكل جيومتري، يلبس ثوبا أحاديا قصيرا (الأشكال1، 2). إنه يحمل بيده اليمنى صولجانا وبيده اليسرى يمسك بيد شخص صغير منجز أيضا بشكل هندسي بحيث يذكرنا برمز تانيت في وضعية التحول نحو التشخيص[1]. ومن نوعه أيضا عدة أنصاب أكثر تأخرا إذ تعود للقرن الأول ميلادي، منها نـــموذج يلبس فيه الشخص ثوبا أطول مـــن الأول (الشكل 3)[2].

الشكل 1
نصب بوني (بطيوة)

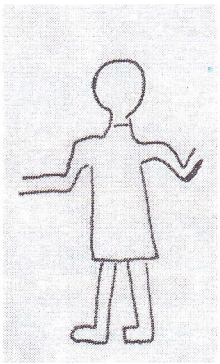

الشكل 2
رسم تخطيطي (بطيوة)

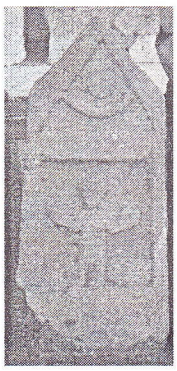

الشكل 3
نصب نذري (بطيوة) وأمدتنا

(1) M. K. ORFALI, Inventaire des sculptures funéraires et votives de la Maurétanie Césarienne, Thèse de Doctorat de l'Université d'Aix-en- Provence, (non publiée), 1989, (Betioua), stèle n° 1 ; G. DOUBLET, Musée d'Alger, Paris, 1890,pp. 27-28.

(2) [2] M. K. ORFALI, Inventaire..., (Betioua), stèles 4,5 ; L. DEMAEGHT, Cataloque du musée d'Oran, Oran, 1932, n° 52.

تيبازة نصبا يلبس الشخص المقدم عليها هذا النوع من الثوب، وهو نصب في أعلاه جبهة فيها هلال مجنح من الجانبين برمز تانيت، بينما يقدم سجله الرئيسي شخصا يلبس ثوبا واسعا بشكل متميز (الأشكال 4، 5)[1].

الشكل 4 (تيبازة)

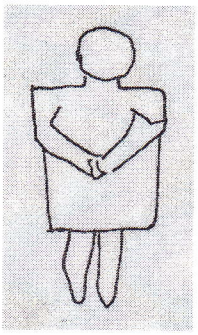

الشكل 5 (تيبازة)

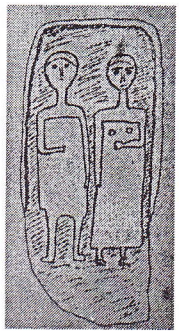

الشكل 6 (دراع زبودج)

وكذلك موقع ذراع زبودج في منطقة القبائل قدم هذا النوع من اللباس في أنصاب لم يبق لدينا إلا رسوما لها وبشكل مقتضب (الشكل 6)، بحيث أن الرجل يلبس ثوبا قصيرا يصل للركبة والمرأة حتى القدمين[2].

هذا الثوب نفسه أنجز على بعض الأنصاب الأخرى من الفترة الرومانية بشكل أكثر دقة وتقنية بحيث أنجزت تفاصيله في الثنايا المتماشية أحيانا مع تقاطيع الجسم. فمن النماذج القصيرة نجدها في نصب جميل من مدينة الجزائر وكذلك على أنصاب من شرشال من القرن الأول م.

فمدينة الجزائر أمدتنا بنصب يقدم سجله شابا يلبس هذا الثوب وقد أنجز بإتقان فني متميز وبشكل واقعي. ثناياه منسابة بشكل تظهر شكل الجسم الذي أنجز بشكل متناسق إلى حد كبير، وهو يحمل بيده حماما ينقر من عنقود عنب

(1) M. K. ORFALI, Inventaire..., stèle n°10.

(2) C. VIRE, Archéologie du Canton de Borj-Menaïel, R.S.A.C., t.38, 1898, pp. 47-49.

الشكل 7 (الجزائر)

الشكل 8 (الجزائر)

الشكل 14 فسيفساء

أعمال الفلاحة (شرشال)

بالحقيقة أن هذا النوع الثوب مستعمل من قبل العامة على أنواعها وخاصة منها الفقيرة إذ نراها ملبوسة من قبل الفلاحين المقدمين على لوحة فسيفسائية من شرشال فيها مشاهد للنشاطات الفلاحية من حرث وحصاد وقطف ثمار (الشكل 14).

نماذج الثوب الأحادي الطويل نجده أيضا بوفرة منها على أنصاب ذات طابع بوني من تيبازة حيث الثوب مقدم برسم مقتضب لشكله الخارجي العام وبدون ثنايا. من نماذجه نصب مستطيل قدم فيه الشخص في سجل مستطيل بنحت بارز يلبس ثوبا فضفاضا واسعا بأكمام قصيرة يصل فيها الثوب حتى الكاحل (الأشكال 9، 10).

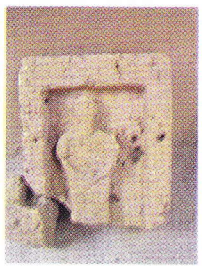

الشكل 9 (تيبازة)

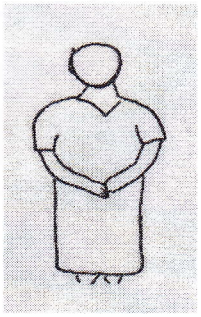

الشكل 10 (تيبازة)

(1) J. CARCOPINO,Sur quelques antiquités inédites..., B.C.T.H., 1918, p. 229.

بينما نجده بشكل متطور أكثر، منجز بثناياه مع واقعية في انسيابه وبتناسق مع الجسم على عدد من الأنصاب في شرشال من أهمها نصب جنائزي من القرن الأول م يقدم تاجرا للزيت مع عدته وأدواته التي يستعملها للبيع (الأشكال 11، 12). النصب ذي قمة مثلثية فيها هلال تحتها كتابة تسجل وفاة شخص معتوق يدعى ب. ليفيوس فيلوروس P. Livius Florus . تحتها سجل قدم شخص التاجر مع عدته بشعر قصير ومجعد، لابسا ثوبا أحاديا بأكمام قصيرة يحمل بيده اليمنى مغرفة طويلة وباليسرى قمعا. ثنايا الثوب أنجزت بشكل جميل وواقعي ومتناسق مع الجسم[1].

الشكل 11 (شرشال)

الشكل12 (شرشال)

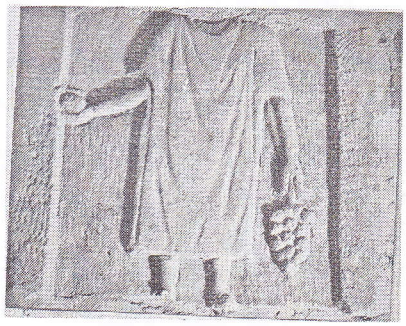

الشكل 13 (شرشال)

ولدينا كذلك نموذج جميل آخر على نصب مكسور من أعلاه يلبس فيه الشخص ثوبا مماثلا واسعا وفضفاضا (الشكل 13).

هذا النوع من الثياب البسيطة تواجدت بالحقيقة منذ عصور ما قبل التاريخ على كثير من النقوش والرسوم المنتشرة في أنحاء شمال إفريقيا. فهي من أبسط أنواع الثياب وليس من الضروري أن نفتش على أصولها فهي محلية وليس لها خصوصيات متميزة. فيمكن تواجدها في عدة بلدان دون الحاجة للتأثر ببعضها.

(1) P. GAUCKLER, Musée de Cherchel, pp. 33-35 ; S. GSELL, Cherchel, antique Iol-Caesaré, p. 79.

بالحقيقة أن هذا الثوب الأحادي ما زال مستعملا يلبسه العامة في وقتنا الحاضر وبشكل كبير وهو منتشر على كل المستويات سواء من قبل المزارعين في الريف أو العامة في المدينة على تنوع طبقاتها الاجتماعية. ولا يختلف فيها إلا طبيعة القماش ودرجة جودته وقيمته حسب الأفراد الذين يلبسونه وطبقتهم الاجتماعية ودرجة ثرائهم وإمكانياتهم.

الأثواب المتعددة:

أحيانا نجد الثياب الملبوسة أكثر تعقيدا ومكونة من عدة قطع وهنا نجد النحات يحاول إظهارها على طريقته وحسب تقنياته في تطبقها فوق بعضها، غالبا القصيرة فيها فوق الطويلة، وأحيانا نميزها بسماكة الثوب؛ فالنحات هنا حاول إظهار هذا الخلاف بين سماكة القماش أو رقة خشونته، أو نعومته في الاختلاف في الثنايا وانسيابها، وغالبا ما نجد الثوب الخارجي من السميك ثناياه أكثر كبرا وغلظة، أما الداخلية فأكثر خفة وثناياها أكثر رقة ورشاقة في انسيابها فوق الجسم.

أنصاب تيقريرت أعطتنا تنوعا هاما في الثياب، وجدنا الأشخاص فيها غالبا ما يلبسون نوعا من المعطف العلوي فوق الثياب وقد أمكن تمييز ملابس الرجال عن النساء.

اللباس الرجالي:

غالبا ما يلبس الرجال فوق الثياب نوعا من المعطف الواسع والمخاط بعدة طرز وموضوع بعدة طرق بحيث نميز فيه عددا هاما من النماذج التي جاء معظمها من تيغزيرت[1]، منها ما يشبه البرنس إلى حد كبير إن لم نقل البرنس نفسه بحيث نجد من نماذجه: واحد من تيغزيرت على نصب جنائزي ذي قمة

(1) P. GAVAULT, Etudes sur les ruines de Tigzirt, pp. 122-127.

الشكل 19
(تيغزيرت)

الشكل 20
(تيغزيرت)

الشكل 21
(تيغزيرت)

الشكل 22
(تيغزيرت)

وأخيرا نذكر نموذجا متميزا لنصب نذري من شرشال محفوظ في المتحف الوطني للآثار القديمة من القرن الأول ميلادي، ذي قمة مثلثية مقدم فيه طفل في كوة ذات قمة مستديرة يلبس ثوبا قصيرا يصل إلى ركبته فوقه معطف له قلمون كغطاء للرأس (الأشكال 21، 22)[8](1).

كل هذه النماذج من المعاطف تذكرنا بالبرنس الذي يلبسه سكان المنطقة في وقتنا الحاضر.

اللباس النسائي:

النساء غالبا ما يلبسن عددا من الأثواب المكونة من ثوبين أو ثلاثة، إنه يتمثل خاصة في فستان طويل يصل حتى القدمين فوقه نوع من السترة وفوق ذلك نوع من الرداء. هذه العناصر الثلاثة غالبا ما حاول النحات أن يظهرها بشكل واضح فوق بعضها.

الفستان دائما طويل يصل حتى القدمين واسعا بثناياه الرقيقية المتموجة وكثيرا ما شد بربطه بحزام في الخصر من القماش المفتول (الشكل 19، 20).

(1) G. MARYE, J. WIERZEJSKI, Catalogue du musée de Cherchel, n° 164.

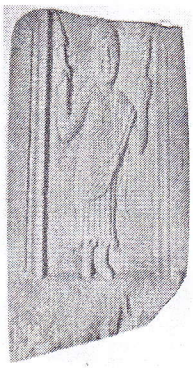

الشكل 23
(تيغزيرت)

الشكل 24
(تيغزيرت)

الشكل 25
(تيغزيرت)

الشكل 26
(تيغزيرت)

الشكل 27
(تيغزيرت)

إن النصب المذكور سابقا والمقدم فيه الرجل وزوجته (الشكل 21)، نجد فيه المرأة تلبس فستانا طويلا يصل للقدمين يشبه كثيرا الفستان التي تلبسه المرأة القبائلية حاليا. شعرها فيه فارق متوسط يقسم الشعر على الطرفين ليربط من الخلف. إنها تلبس رداء يأتي من الظهر إلى الوسط ليلتف مرتين ويربط في الوسط. إنه يشبه الرداء المدعو بالفوطة التي تلبسه النساء القبائليات (الشكل25).

نموذج آخر نجده على نصب نذري مكسور في أعلاه يقدم امرأة بلباس متميز تحمل بيديها مشعلين، وشعرها مشدود نحو الخلف ومفصول في الوسط بفارق (الشكل 26). إنها تلبس فستانا طويلا يصل للقدمين ممسوك في الأسفل بعصابة مفتولة، أكمامه قصيرة مربوط بحزام مفتول تحت الثديين، ثناياه السفلى عمودية تنزل بشكل انسيابي وكأنه فستان مرهف رقيق القماش. إنها تلبس فوقه رداء يصعد نحو الكتف الأيسر ليغطي الظهر ويدور حوله ليأتي من الخصر الأيمن ويلف البطن ويصعد فوق الساعد الأيسر. إنه نوع من الفوطة التي تلبسه المرأة القبائلية (الشكل 27).

نموذج آخر على نصب يقدم امرأة تلبس فستانا طويلا يصل للقدم، أكمامه طويلة، في قسمه السفلي منجز بثنايا عمودية متموجة (الشكل 28). تضع في

وسطها رداء من نوع الفوطة محزوم في الوسط برباط مفتول. أطرافه من الأمام والوسط مرفوعة ومشدودة بالحزام معطية شكلV (الشكل 29). هذا النوع من الفستان والفوطة على أوضاعهما المتنوعة متواجدان أيضا في يومنا هذا ويتمثل بالجبة القبائلية.

الشكل 28 (تيغزيرت)

الشكل 29 (تيغزيرت)

بالحقيقة أن هذه النماذج التي رأيناها مما يلبسه الرجال أو النساء من القندورة والبرنس والجبة القبائلية والفوطة تدلنا بشكل واضح على استمرارية مثيرة للاهتمام في نوعية الملابس التي كان السكان يلبسونها في طرزها وأشكالها. استمرارية في تواجدها إلى يومنا هذا دون أن يطرأ عليها تغيير، مما يدل على أصالتها وبأن المجتمع بقي محافظا على تقاليده وعاداته عبر العصور. فالتغيير لم يطرأ عليها رغم الأحداث الكثيرة والكبيرة التي مرت على المنطقة ورغم توالي الغزاة والأقوام الذين مروا على المنطقة والمختلفين عنها في عاداتهم وتقاليدهم.